الكتابة اللسانية التمهيدية، إعادة قراءة وتقويم -كتب المداخل أنموذجا-

Introductory linguistic writing ,Return Reading and Evaluation - Entrance Books as an example -

مسيكة ذيب

جامعة العربي التبسي تبسة

massikadoc77@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020/12/01 تاريخ القبول: 2020/12/05 تاريخ النشر: 2021/01/01

ملخص:

على الرغم من تأخر ظهور اللسانيات الحاسوبية في الدرس اللغوي العربي بالمقارنة مع مثيلاتها في الدول الأجنبية، إلا أنها استطاعت أن تشق طريقها وتقطع أشواطا لابأس بها، بل وتفتك لنفسها ملمح خصوصيتها في الإشتغال على لغة الضاد، ولا أدل على ذلك سوى جهود البحاثة اللغويين العرب، والتي كانت بمثابة تجارب رائدة في هذا المجال، سواء أكانت ذات طابع فردي أو مؤسساتي، وهي لعمري مبادرات جادة تتسم بالنضج العلمي والمنهجي، وتصب في خانة قدرة اللغة العربية على مسايرة روح العصر، واستيعاب مستجداته الطارئة، وتمثل تقنياته التكنولوجية والرقمية بكل كفاية واقتدار، على أن تركيزنا سيكون على المشروع اللساني للغوي المغربي محمد الحناش، والذي تحول -بفضل سعيه الدؤوب وإسهاماته الطيبة محليا وعربيا- إلى علامة فارقة في مسار الدراسات الحاسوبية العربية، والتي عرفت أسماء عديدة لها وزنها وصيتها الذائع؛ كـ: نهاد الموسى وعلي نبيل والحاج عبد الرحمان صالح وغيرهم.

الكلمات المفتاحية: حوسبة اللغة، الدرس اللساني المعاصر، اللغة العربية، الجهود الرائدة، محمد الحناش.

Abstract:

Despite the delay in the emergence of computational linguistics in the Arabic linguistic lesson compared to its counterpart in foreign countries, it was able to make its way and go great lengths, and it even got for itself the feature of its peculiarity in working on the language of dissent, and this is only evidenced by the efforts of Arab linguistic researchers, Which were considered pioneering experiences in this field, whether they were of an individual or institutional nature, and they were as long as serious initiatives characterized by scientific and methodological maturity, and poured into the field of the ability of the Arabic language to keep pace with the spirit of the times and absorb its urgent developments, and represent its technological and digital technologies with all sufficiency and measure. However, our focus will be on the linguistic project of the Moroccan linguist Mohamed Al-Hanash, which has turned - thanks to his

continuous endeavors and good contributions locally and in the Arab world - into a milestone in the course of Arab computer studies, which has known many names that have a common weight. K: Nihad Al-Musa, Ali Nabil, Hajj Abd al-Rahman Salih and others.

Key words: language computing / contemporary linguistic lesson / Arabic language / pioneering efforts / Muhammad al-Hanash

1. مقدمة:

تنتصب اللّغة كمقوّم حضاري هام وأداة تجسير فعّالة في التواصل بين بني البشر، إنّها ميزة إنسانية طبيعية خالصة ووسيط تعبيري استثنائي مائز، يحقّق ألفة التشاركية وديناميكيتها داخل المؤسسة الاجتماعية، ما يعني أنّ هذه الملكة لا تكفّ «في سيرورتها وصيرورتها عن التغلغل في جسد العالم مشتبكة مع أشيائه وكائناته في علاقة عشق منذ الأزل، لتمارس لذّة التسمية، وهدفها في ذلك إخراج العالم من حال الهيولى والعماء إلى حال الشكل والتمايز، ومن الغياب إلى الحضور ومن المجهول إلى حافات المعلوم»1، وأكثر من ذلك، فإنّ هذا المتناهي واللاّمتناهي من الجمل – من المنظور التشومسكي – يستحيل وعاء حاضنا للفكر، وإشعاعا مرآويا لما يختلج في ردهات النفس البشرية من أحاسيس وانفعالات ورغائب مضمرة.

ومن هذا المنطلق، فقد راحت اللغة، باعتبارها المعين الخصيب والمنهل الأثير، بل الركيزة الأساسية في عملية التواصل الإنساني بامتياز، تستقطب اهتمام العديد من البحاثة والدّارسين على مرّ الأزمنة والعصور، وتسترعي انتباههم، وتدفع بهم إلى الجلوس في محرابها القدسي دراسة ومذاكرة، ومن هنا انبثق علم جديد، حمل على عاتقه مهمة استكناه ماهية هذه الظاهرة، والكشف عن عوالمها ومدارات اشتغالها، تأسيسا لمقولاتها ومبادئها وشبكة أبجدياتها المصطلحية عرف بـ: الألسنية أو اللسانيات Linguistique.

والحقيقة أنّ اللسانيات التي تعنى بدراسة الأنظمة اللغوية الإنسانية2، باعتبارها مجالات خصيبة وقنوات إمداد رئيسة لعملية التواصل الاجتماعي، هي علم حديث الولادة، إذ شهد أولى انبثاقاته وتمظهراته في الحضن المعرفي والمنهجي الغربي إبّان القرن

التاسع عشر، هذا العلم الذي حصر اهتماماته في ميدان اللغة فقط، متّخذا منها قاعدة أساسية للحكم على جميع مظاهر الكلام الأخرى3.

وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ الاتفاق حاصل– لدى مختلف البحاثة والدارسين – على أنّ فردينان دي سوسير Ferdinand De Saussure، والذي كان في مرحلته الجامعية طالبا في الطبيعة والكيمياء تبعا لتقاليد عائلته(4)، هو الأب الحقيقي للسانيات الحديثة والمعاصرة، «فهو اللساني الذي أعاد تنظيم دراسة اللغة وفق تصوّر جديد»(5)، وجعل الدرس اللساني يتّخذ منحى مختلفا، ويرسم مسارا واعيا نحو التأسيس لنموذج معرفي يرتقي إلى معارج الرشد والنضج المنهجيين، وذلك من خلال كتابه الشهير: دروس أو محاضرات في الألسنية العامة Cours de Linguistique Générale، والذي هو في الأصل عبارة عن مجموعة من المحاضرات كان قد «ألقاها على طلبته في جامعة جنيف بين عام 1907 وعام 1911 في ثلاثة فصول دراسية متباعدة»6.

ونحن اليوم ممنونون لتلميذيه الوفيين: شارل بالي Charles Bally وألبرت سيشهاي Albert Sechehaye اللذين جمعا هذه المحاضرات بعد وفاة معلمهما في فبراير 1913، ونشراها - بعد تكبّدهما للكثير من الصعوبة والعناء – في شاكلة كتاب، استجمع أمالي وأماني صاحبه، وكان ذلك عام 1916م، وهو كتاب أدى – كما يرى ميلكا إيفيتش Milka Ivitch - «دورا طليعيا في علم اللغة، لقد جعل منه رائدا يقتحم ميدانا جديدا، لقد برهن – سواء أكان صوتا أصيلا لصاحبه أو لم يكن – على أنّه روح قوية ألهمت أجيالا جديدة من اللغويين، وأنّه مصدر غنّي لنظريات جديدة في علم اللغة، إنّه كثيرا ما كان باعثا للجدل، وكثيرا ما استحق الثناء المحمود، وتعرّض للنقد القاسي، ومع ذلك فإنّ (سوسير) – في نظر العالم – هو هذا الكتاب»7.

إذن، لا مجال لإنكار دور هذا اللغوي الاستثنائي (سيبويه الغرب)، الذي غيّر من مجرى التاريخ اللغوي، أين دشّن لحقبة جديدة، بل لفتح مهيب، كلل باللسانيات، التي استطاعت - وبفضل مجهوداته – تحقيق ثورة كوبرنيكية منهجية عظيمة خلال القرن العشرين، وتأكيدا على ذلك نرى مترجم كتاب: البحث عن فردينان دي سوسير لميشال

أريفيه، وعلى مستوى المقدمة يذهب إلى القول: «...ولا يستطيع أحد أن ينكر تأثيره في علم اللغة في القرن العشرين، وهو الذي دشّنه، وقد شبّه نشر كتابه دروس بالثورة الكوبرنيكية»8.

وهكذا، وخلال هذا القرن – أعني العشرين – ذاع صيت اللسانيات، وانتشر صداها، فكانت بمثابة النبع السخيّ الذي انهمرت روافده، ليصل مداها إلى شتى أصقاع العالم، بما في ذلك الوطن العربي – الذي تلقى – وبفيض من الشغف – هذا الوافد الجديد، وجعله من أولويات اهتماماته، بل هاجسا من هواجس انشغالاته، لتتّجه الأنظار إلى عملية ترجمة مقولاته ومبادئه ومدارسه ومناهجه وآليات عمله، وكذا تأليف العديد من المؤلفات في إطاره مساءلة ووصفا وتفسيرا وشرحا، وتبسيطا للمعارف اللغوية، وهو ما يمكن أن يندرج في الحقل العربي تحت مظلة: اللسانيات التمهيدية أو التيسيرية أو التبسيطية، التي انبرت لتحمل على عاتقها مهمة تبسيط المعارف اللسانية وتقديمها في صورة ميسرة لا تشوبها شائبة للقارئ العربي – لاسيما المبتدئ – متّخذة من المنهج التعليمي الإرشادي كأداة إجرائية ووعاء هيكلي مساعد على الشرح والتوضيح9، ولعل الذي يعنينا من هذه الكتب تلك التي تنتصب كمداخل هامة ورئيسة لفتح مغاليق هذا العلم، ورفع اللبس عن غوامضه كـ: كتاب مدخل للسانيات سوسير لمبارك حنون، ومدخل إلى اللسانيات لمحمد محمد يونس علي، ومدخل إلى علم اللغة لمحمود فهمي حجازي...

وإذا كان «السؤال يمثل فسحة القراءة لارتكاب لذّة الكشف ومتعته»10، فإنّ الانخراط في دوائره بدا ضرورة ملحّة، ومن ثمّ سينطرح السؤال الآتي: هل استطاعت هذه المؤلفات أن تلبي حاجة الذات القارئة العربية، وتزيل الحجب عمّا التبس في حقل هذا العلم، أم أنّها زادت الطين بلّة؟ أكانت يسرا أم عسرا عليها؟ وبتعبير آخر: هل نجحت هذه المصنّفات التيسيرية في تقريب الصورة ورسم حدود الرؤية الواضحة للسانيات الغربية، وبالتالي إذابة جليد الإبهام والغموض في مسالك هذا العلم أمام القارئ العربي؟ أم أنّها ضاعفت من تعقيدات الأمر، ليبقى هذا الحقل اللغوي هاجسا وشبحا مرعبا يقض مضجعه الإبستيمولوجي؟

وإذا كان كلّ مؤلف من المؤلفات اللسانية التمهيدية – كما يرى حافظ إسماعيلي علوي – هو: «بنية خطابية متكاملة علميا ومنهجيا، بدءا بعنوان الكتاب، مرورا بمقدّمته، وعناوين أقسامه وأبوابه وفصوله، وصولا إلى خاتمته»11، فقد ارتأينا الولوج إلى فضاءات كتب المداخل – قيد القراءة والتطبيق – انطلاقا من عتبة العنوان أوّلا، ثمّ خطاب التقديم ثانيا، فما هي الإشعاعات المعنوية والشحنات الدلالية التي تحيل عليها يا ترى؟

2- محافل العنونة في كتب المداخل:

إذا كانت العتبات همسات البدايات، فإنّ فاتحة همستنا البدئية، ستكون عبر بوابة العنوان، باعتباره أولى الأبجديات القرائية بل الخطوة الافتتاحية للارتحال إلى عوالم النصّ، والعبور إلى فضاءاته وأقاصيه مساءلة ومخاتلة، لاقتناص الدلالات المضمرة، وكشف المخبوء والمسكوت عنه، وباختصار شديد: إنّه «علامة جوهرية للمصاحب النصّي»12.

وتأسيسا على ما سبق، فإنّ العنوان سيغدو بمثابة المفتاح السحري لباب النصّ الموصد الذي يمنحه مشروعية الكينونة والهوية في العالم، وبالتالي فهو المؤشر التعريفي التحديدي الذي يفصل بين العدم والوجود، بين الفناء والامتلاء، وهذا ما يعني أنّ النصّ متى ما امتلك عنوانا حاز – بشكل فعلي – على كينونته وهويته وأفلت من العماء، واستكان إلى ألفة الوجود المستأثر بالحضور لا الغياب13.

وإذا كان العنوان بنية رحمية، أو لنقل بؤرة حافلة بالاقتصاد اللغوي، تلح على المتلقي فتقلقه، بل عتبة مفخخة ومحكمة الاختيار والنسج، الغرض منها استدراج القارئ لكي يقع في عشق النص وهيامه، فكيف تبدت إستراتيجية صياغة العنونة في كتب المداخل التي وقع عليها اختيارنا يا ترى؟

من خلال التمعن في البنية التركيبية للعناوين الثلاثة، نلحظ أنّها تعكس وفاء خالصا لتقاليد العنونة الاسمية على حساب الفعلية، ذلك أنّها جاءت على شاكلة جمل اسمية مستوفية لعناصرها نحويا (المسند إليه = المبتدأ والمسند= الخبر)، مع العلم أن الاسمية هي: «خاصية مميزة في بنية العنوان وجملته»14، بصورة عامة.

إن البنية التركيبية للعناوين الثلاثة تكاد تكون متماثلة، وذلك لوجود اتفاق واضح في طبيعة العناصر النحوية المؤثثة لجملها الاسمية، إذ شكل المسند إليه –والذي جاء في صورة اسم مفرد ظاهر- قاسما مشتركا، ومرتكز تبئير تلتقي عند تخومه جملة من الدلالات اللغوية، فقد جاء في لسان العرب لابن منظور: «...الدخول نقيض الخروج، دخل يدخل دخولا وتدخل ودخل به...والمَدخل بالفتح، الدخول وموضع الدخول أيضا المدخل بضم الميم الإدخال والمفعول من أدخله، نقول أدخلته مُدخل صدق، والمدخل شبه الغار يدخل فيه وهو مفتعل من الدخول...»15.

وتبعا لذلك فإن كلمة مدخل باعتبارها مفتاحا وبؤرة للعناوين الثلاثة –لا تحيل في تدليلاتها اللغوية سوى على مكان أو موطن الدخول؛ أي نقطة البداية المكانية في أي لون من ألوان الممارسات والنشاطات الإنسانية، ولن نخفي أمارات الجزم والتأكيد على أن هذه الكلمة قد حبكت عن قصد، مادام أن العنوان لطالما كان «مطية لمقصدية الكاتب»16، وذلك لتشير إلى المنطلقات والأوليات والأسس والمبادئ المفتاحية لأي علم من العلوم.

أضف إلى ذلك أن هذه البؤرة اللغوية (مدخل) تمارس نوعا من «تحريض المتلقي وإثارة انتباهه...[و] التحريض عتبة للاستجابة17، إذ يجد نفسه متأثرة منجذبة نحوها، لما فيها من ملامح التسهيل والتيسير والتبسيط، بل ستنتابه فيوضات الفضول الجامح لكشف خبايا وأسرار هذا العلم وسبر حدوده وأغواره، وهذا ما يجسد لنا الوظيفة الإغرائية أو الإغوائية من منظور ليوهوك وجيرار جينيت.

وإذا ما تفحّصنا المسند في بنية هذه العناوين لاحظنا أنّه جاء على شاكلة جار ومجرور، فـ: إلى حرف جرّ يفيد انتهاء الغاية المكانية نحويا، أمّا الاسم المجرور - والذي تحقق له امتياز المعرفة بالألف واللام تارة، وبالإضافة تارة ثانية – فإنّه يحيل على فضاء معرفي مؤطر الحدود ممثلا في: اللسانيات أو علم اللغة بوجه عام، وذلك انطلاقا من جملة العنونة لدى كلّ من: محمد يونس علي18، ومحمود فهمي حجازي19، على أنّ هذا الاسم الذي طاله اعتمال الجر قد بدا في عنونة الباحث مبارك حنون مقرونا بمضاف

إليه تجسد في سوسير باعتباره المدشن والمعلم الذي يتموضع في ذروة هرمية صرح هذا العلم، وذلك بهدف التعريف بإنجازاته وإسهاماته كقطب لغوي، بل كرائد وعلم بارز من أعلام اللسانيات.

ولمّا كانت العناوين الثلاثة قيد الأشغال – من صنف العناوين التيماتية في تصنيفات جيرار جينيت– والتي «تحيل بطريقة معينة على "مضمون" النص»20، فإنّ الوظيفة المنوطة إليها هي: الإحالية، وهذه «الوظيفة التي يمكن أن ندعوها وظيفة معرفية أو تعيينية هي أساس كل تواصل، فهي تحدد العلاقات بين الرسالة والشيء أو الغرض الذي ترجع إليه»21.

وعلى الرغم من أنّ هذه العناوين بدت واضحة المقاصد والغايات، إذ أنّها تهدف إلى استمالة القارئ، وتوجيه قبلة اهتمامه شطر دائرة البحث اللساني للإلمام بأبجدياته ومفهوماته ومجالاته وقطاعاته، إلاّ أنّنا نجدها تطرح أولى إشكالات التلقي للدرس اللساني الغربي في الساحة العربية، وهي إشكالية ترجمة المصطلح، فكلّ باحث يعمد إلى ترجمة المصطلح حسب هواه ورؤاه الفكرية ومكتسباته اللغوية، ولئن كان الاتفاق حاصلا بين الباحثين يونس علي ومبارك حنون في توظيف مصطلح اللسانيات كمقابل لمعادلة الأجنبي Linguistique، فإنّ محمود فهمي حجازي قد فضّل استخدام مصطلح علم اللغة، وهذا ما يجعل المتلقي العربي خاصة المبتدئ، يغرق في دوّامة مصطلحية رهيبة، ويجد نفسه أمام شبكة من المصطلحات اللامتناهية (مقابلة مصطلح واحد بعدّة ترجمات)، وهذا – في حدّ ذاته – يشكّل مصدر قلق كبير وتوجس متعاظم بالنسبة إليه في هذه المرحلة التلقينية المتقدمة جدّا.

3- خطاب التقديم: نبوءات واستشرافات

يندرج خطاب التقديم في نطاق النصوص المحيطة أو المصاحبات النصية، والتي تهدف إلى إنتاج خطاب أولي على مشارف النص الذي تتصدّره، إنّه عتبة افتتاحية تنفرد «بوضع اعتباري مميّز»22، يرسم من خلالها المؤلف تقاطيع توجهه الفكري، وحدود القضايا المأمول معالجتها في المتن النصّي اللاحق.

ومن منظور جيرار جينيت، فإن المقدمة تتموضع كـ: «عنصر نصّي محاذ وداخلي... وهي أيضا إمّا أصلية... (مواكبة للطبعة الأولى أو لاحقة تصاحب الطبعة الثانية)... أو متأخرة (عادة ما تكتب بنفس الوصايا النقدية في مرحلة متأخرة من عمر الكتاب)»23.

وهكذا، فإنّ الخطاب المقدماتي أو المرادفات الموازية – كما يحلو لجينيت تسميتها في بعض الأحيان – يتفق مع كل «نصّ استهلالي ذاتي Autorail أو غيري Allographe»24 يتغي النهوض «بوظيفة بروتوكولية أكثر ظرفية»25، إنّه يروم – ومن زاوية تقدير هنري ميتران – تحقيق الغاية الديداكتيكية وحسب رأيه، فإنّ «كلّ خطاب ديداكتيكي، هو خطاب إكراهي وإلزامي لا يقول "هذا هو العمل" فحسب، ولكن أيضا: "هذا ما يجب عليكم الاقتناع به"»26.

وإذا ما عدنا إلى كتب المداخل الثلاثة الموضوعة على محكّ الفحص والقراءة، لاحظنا أنّ الخطاب التقديمي فيها ليس مجرد حلية شكلية، أو ديباجة تزيينية، وإنّما اتخذ شكل خطاب استقطابي استحوذ على أهمية استثنائية، بل تحول إلى إستراتجية فاعلة في مثل هذه الكتابات اللسانية التمهيدية، خاصة وأنه يرتهن إلى رؤى المؤلف الذي يوجهه إلى قارئ عربي له وضع اعتباري معين، إنه يتواجد في درجة دنيا؛ درجة القارئ المبتدئ الذي يبحث عن أفق لامتطاء صهوة هذا العلم، وإيجاد منافذ يسيره للولوج إلى أرجائه وفضاءاته.

يلح محمد يونس علي في مقدمة كتابه: مدخل إلى اللسانيات على أنّ هذا المؤلف إنما هو موجه للقارئ المبتدئ الذي سيباشر عملياته الاستطلاعية للكشف عن خفايا هذا العلم المثير -حسب وصفه- ويقصد اللسانيات، انطلاقا من حدود ثلاثة هي: اللسانيات وفروعها المختلفة، ثم اللغة من حيث تعريفها وخصائصها ووظائفها، وأخيرا المدارس اللسانية وأصولها الفلسفية يقول مؤكدا على ذلك: «ولعله لا يخفى على القارئ أن هذا هو ما يمكن أن يقدم للقارئ المبتدئ في استكشاف معالم هذا الحقل، إذ من المنطقي أن يبدأ بالتعرف على هذا العلم وفروعه، ثم ينتقل إلى دراسة مفهوم اللغة التي هي موضوع

هذا العلم، ثم ينطلق للتوسع في الاطلاع على مدارس العلم، والأصول الأنطولوجية، والإبستيمولوجية التي وجهت تلك المدارس...»27.

يبدو أن الغاية التي يهفُو يونس علي لتحقيقها - وهو الذي يقدم اعترافا صريحا بأن دافعه لتأليف هذا الكتاب هو فقر الجامعات العربية إلى كتب منهجية لسانية – هي التعليمية التربوية، التي تضع نصب عينيها تبسيط المفاتيح والمفاهيم اللسانية الأساسية لطلاب الدرجة الصفر في علاقتهم مع حقل اللسانيات، يضيف قائلا: «وقد صمم ليكون منهجا ملائما لطلاب اللسانيات في الدراسات الجامعية وما بعدها، ويرمي إلى تقديم المفاهيم اللسانية الأساسية التي يحتاج إليها المبتدئون في دراسة اللسانيات وذوو الثقافة العامة والمهتمون بهذا الحقل»28.

وهذا مبارك حنون الذي امتد خطابه التقديمي من الصفحة الخامسة إلى الثامنة، يركز على لفت انتباه القارئ المبتدئ إلى إسهامات اللغوي رقم 01 في تاريخ الإنسانية: فردينان دي سوسير، وذلك من خلال كتابه: «دروس في اللسانيات العامة 1916 المترجم إلى عدة لغات،« والذي من خلاله اتخذ الدرس اللساني منحى جديداً»29.

يشدد حنون وعلى مستوى خطابه التقديمي على أفكار دي سوسير، ويشيد بتأثيرها الواسع والكبير على غيرها بشهادة أقرانه من اللغويين، لاسيما وأن تأثيرها قد امتد إلى مختلف العلوم الإنسانية، كما لم يفته التأكيد على أهمية اللسانيات وقيمتها الجوهرية، وامتداد تأثيرها إلى العلوم الإنسانية، لتحقق بذلك زخما كبيرا وحضورا متميزا منهجا ومعجما مفهوماتيا.

وإذا كان دي سوسير هو «إنسان الأسس»30 بجديته وصرامته، فإن إسهاماته اللسانية قد وجدت صدى لها، وحققت استمرارية واسعة نقدا وتوضيحا وحتى تجاوزاً.

ولم يغب عن ذهن حنون الإشارة إلى تأخر -وهو تأخر له أكثر من دلالة حسب تعبيره- نقل كتاب الدروس لسوسير إلى اللغة العربية، والذي لم يتم إلا مع مطلع الثمانينيات؛ أي بعد حوالي 70 عاماً، ولعل هذا الأمر من - منظوري الشخصي- يعتبر إشكالية لها رواسبها في ساحة التلقي العربية، التي لم تستأنس طويلا بمنهل خصيب كهذا.

ويوجز محمود فهمي حجازي خطابه التقديمي الذي لم يغط سوى صفحة واحدة – وأعني تقديم الطبعة الجديدة المنقحة- وبعد البسملة نجد أنفسنا في موضع إشكالي حول طبيعة القارئ الذي يوجه إليه الكاتب عمله التصنيفي هذا، فهل هو القارئ المبتدئ أم أنه قارئ آخر التصقت به غير هذه الميزة؟

لكن الإجابة سرعان ما تأتينا في تضاعيف مقدمته، إذ نسمعه يقول:« يطيب لي أن أقدم للقارئ المثقف وللباحثين في علوم اللغة هذا الكتاب في طبعته الجديدة الموسعة»31، غير أنه كان قد أشار في الطبعة الثانية للمؤلف ذاته إلى هوية مختلفة للقارئ(وهو المبتدئ) الذي تبدت ملامحه من خلاله قوله:

« هذا كتاب يضم فصولا تمهيدية في علم اللغة، تقرب حقائقه الأساسية»32.

ومهما اختلفت الصيغ، وتلونت العبارات في الخطاب التقديمي لمحمود فهمي حجازي، فإن الهدف الذي يصبو إلى تحقيقه هو تعليمي بالدرجة الأولى، وهو هدف مشترك بين مختلف أطياف الكتابة اللسانية التمهيدية، فها هو يحدد- وبشكل صريح- الغاية التي ألف من أجلها هذا الكتاب، إذ يقول:« يعرف الكتاب بطبيعة اللغة ووظيفتها المجتمعية، ويتناول بإيجاز مناهج البحث اللغوي، ويقدم تعريفا بأهم قضايا البحث الصوتي في العربية بالإفادة من مناهج حديثة وربط المصطلحات بالأصول التراثية، مع عرض مركز لأصوات العربية واتجاهات التغير فيها»33.

والحقيقة أن هذا المقطع المقدماتي، وإن بدا يولي عناية فائقة لضبط مواد الكتاب، إلا أنه يضعنا أمام مأزق ليس بالهين، وهنا تنبعث بوادر إشكالية أخرى من إشكالات التلقي العربي للدرس اللساني التمهيدي؛ وهي التشويش على القارئ المبتدئ الذي يجد نفسه على أعتاب الحداثة اللسانية، ثم ما يفتأ أن يأتيه عبق التراث وعراقة نفحاته، فيستشعر الاضطراب والبلبلة.

بعد هذه الجولة الاستطلاعية في أرجاء عتبات التقديم لكتب المداخل الثلاثة، والتي هي قطرة من فيض داخل حقل الكتابات اللسانية التمهيدية، نصل إلى القول بأن المؤلفين الثلاثة كان طموحهم تيسير سبل المعرفة اللسانية، بل العزف على وتر الوظيفة

التعليمية التبسيطية التي تختزل ذاتها في تقديم اللسانيات كلقمة سائغة، وعلى صحن من ذهب للقارئ العربي، لاسيما المبتدئ، ذلك أن معظم الدوال اللغوية والصيغ التركيبية التي حشدت على مستوى الخطاب التقديمي كـ:(يقدم للقارئ المبتدئ، يبدأ بالتعرف، تعريف للمفاهيم، يرمي إلى تقديم، تقرب حقائقه...)بدت مؤدلجة ومدججة لخدمة المقصدية التعليمية المتوخاة.

4- تعريف اللسانيات/ علم اللغة:

إن اللسانيات كعلم جديد بلغ أوج إشراقاته في العصر الحديث، بعد أن «تخلص ببطء من التعاليم النحوية ومن بحوث الفيلولوجيا والتفكير الفلسفي حول أسس المعرفة وحول العلاقات بين الفكر ووسائل التعبير عنه»34 لم تكن قاصرة عن تحديد مادة اشتغالها وطبيعة موضوعها، وهي اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها، لتغدو بذلك « الكلمة هي المادة الملموسة لعلم اللغة»35.

إذن، موضوع اللسانيات هو اللغة كنظام أدلة، بل كـ:« مجموع الشروط التي تجعل بناء اللسان ممكنا»36، إنها تعول كثيرا على وصف الوقائع اللغوية، التي تجعل منها بؤرة اشتغال ضمن نسق مغلق، وإذا كان الأمر كذلك، فما هي رؤية أصحاب كتب المداخل الثلاثة لعلم اللسانيات؟ وماذا عن تصورهم لمادته وموضوعه؟

ينطلق مبارك حنون في ضبطه لحدود اللسانيات بالإشارة إلى أهميتها، والمكانة المرموقة والمركزية التي تتبوؤها بين العلوم الأخرى، إذ يقول: «لقد أصبحت اللسانيات تحتل موقعا مركزيا داخل العلوم الإنسانية التي جعلتها تفرض عليها نموذجها التحليلي ومعجمها المفهومي»37.

أما موضوع هذا العلم أو مادته من زاوية نظره، فإنه لا يخرج عن نطاق التصور السوسيري، فها هو صوته يعلو مضمخا بأفكار هذا العالم اللغوي الشهير، حيث يقول: «تتكون مادة اللسانيات، في نظر سوسير، من تمظهرات اللغة الإنسانية سواء تعلق الأمر بالشعوب المتوحشة أو بالشعوب المتحضرة، بالعصور القديمة والكلاسيكية أم بعصور

الانحطاط، ولا تنحصر تمظهرات اللغة في " اللغة المستقيمة" و" اللغة الجيدة" بل تشمل كل أشكال التعبير»38.

وفي السياق ذاته يذهب محمد محمد يونس علي إلى التأطير المفهوماتي للسانيات انطلاقا من موضوعها، حيث يقول: « تعرف اللسانيات Linguistics(ويسمى أيضا الألسنية، وعلم اللغة) بأنها " الدراسة العلمية للغة" تمييزا لها عن الجهود الفردية، والخواطر، والملاحظات التي كان يقوم بها المهتمون بالغة عبر العصور...»39.

ولعله يقرن هذا التحديد التيماتي - من جانب آخر- بالجوانب والفروع اللسانية المختلفة:(العامة، الوصفية، التاريخية، النظرية والتطبيقية).

أما محمود فهمي حجازي، فيهندس تضاريس المدلول الاصطلاحي لهذا العلم بربط وشائج القربى بين موضوعه تارة ومجالاته تارة أخرى، إذ يقول:« علم اللغةLinguistic في أبسط تعريفاته هو دراسة اللغة على نحو علمي ويعني هذا التعريف أن الدراسات اللغوية موضوعية وليست انطباعية ذاتية»، ليرتحل بنا بعد ذلك إلى المجالات والجوانب التي من خلالها تنعقد حلقة دراسة اللغة في عرف علم اللغة الحديث؛ تلك المتمثلة في: «1- الاصوات- بناء الكلمة 3- بناء الجملة 4- الدلالة»40.

ويرى حافظ إسماعيلي علوي أنه، وعلى الرغم من أن أغلب الكتابات اللسانية التمهيدية تتخذ من الموضوع كنقطة ارتكاز في تعريفها للسانيات، إلا أنها تظل قاصرة، لأن« الموضوع لا يقدم دائما بالدقة المطلوبة»41.

وختام القول أن الكتابة اللسانية التمهيدية العربية، وإن حققت شيئا من كينونتها، وبلغت حدا كبيرا من الكثافة والتراكمية التأليفية (وهذا أمر في حد ذاته يتموضع في أفق التلقي كإشكالية لها وقعها)، إلا أنها تظل بعيدة عن طموح القارئ المبتدئ الذي نجده يعاني من إشكالات عويصة في تلقي الدرس اللساني الغربي، فبالإضافة إلى تلك التي سبق وأن ذكرناها في وقت سابق، تتراءى لنا إشكالات أخرى، كالغموض والتسرع وإطلاق الأحكام المسبقة أو الجاهزة...فرفقا بهذا القارئ المبتدئ يا

معشر الكتاب، وهنيئا للمتخصصين الذين امتطوا صهوة الدرس اللساني الغربي المعاصر عن وعي وجدارة.

هوامش البحث:

[1]- خالد حسين حسين، **في نظرية العنوان، مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية**، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، (د ط) 2007، ص: 20.

[2]- إشارة إلى تعريف (مارتيني Martini) لعلم اللغة الذي جعله منحصرا في «الدراسة العلمية للغة الإنسانية»، ينظر: نور الهدى لوشن، **مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي**، المكتبة الجامعية الأزاريطة، الإسكندرية، (د ط)، 2000، ص: 37 ، نقلا عن:

Elément de linguistique générale, p: 24.

[3]- ينظر: فردينان دي سوسير، **دروس في الألسنية العامة**، تع: صالح القرمادي وآخرون، الدار العربية للكتاب، (د ط)، 1985، ص: 29.

[4]- ينظر: محمد حسن عبد العزيز، **سوسير رائد علم اللغة الحديث**، دار الفكر العربي، القاهرة، (د ط وت)، ص: 10.

[5]- مبارك حنون، **مدخل إلى لسانيات سوسير**، ضمن سلسلة توصيل المعرفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، (د ط)، 1987، ص: 9.

[6]- إبراهيم خليل، **في اللسانيات ونحو النص**، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، الأردن، ط١، 2007، ص: 14.

[7]- محمد حسن عبد العزيز، **سوسير رائد علم اللغة الحديث**، ص: 13.

[8]- ميشال أريفيه، **البحث عن فردينان دو سوسير**، تر: محمد خير محمود البقاعي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، 2009، ص: 9.

[9]- حافظ إسماعيلي علوي، **اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط١، 2009، ص: 99.

[10]- خالد حسين حسين، **في نظرية العنوان**، ص: 18.

[11]-حافظ إسماعيلي علوي، **اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته**، ص:99.

[12]- نبيل منصر، **الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط١، 2007، ص 40.

[13]- ينظر: خالد حسين حسين، **في نظرية العنوان**، ص 5، 6.

[14]- المرجع نفسه، ص313.

[15]- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، **لسان العرب**، مج11، دار صادر، بيروت (د.ط)، (د.ت)، مادة (د.خ.ل) ص:339، 240.

[16]- خالد حسين حسين، **في نظرية العنوان**، ص:99.

[17]-المرجع نفسه، ص: 101.

[18]- محمد يونس علي، **مدخل إلى اللسانيات**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004.

[19]- محمود فهمي حجازي، **مدخل إلى علم اللغة**، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د ط و ت).

[20]- نبيل منصر، **الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة**، ص: 46.

[21]- خالد حسين حسين، **في نظرية العنوان**، ص: 107.

[22]- نبيل منصر، **الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة**، ص: 61.

[23]- عبد المالك أشهبون، **عتبات الكتابة في الرواية العربية**، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2009، ص: 69، 70.

[24]- نبيل منصر، **الخطاب الموازي للقصيدة العربية المعاصرة**، ص: 62. نقلا عن: seuils, op, cit, p 150

[25]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[26]- عبد المالك أشهبون، **عتبات الكتابة في الرواية العربية**، ص: 71.

[27]- محمد محمد يونس علي، **مدخل إلى اللسانيات**، ص:5 .

[28]- محمد يونس علي، **المرجع السابق**، الصفحة نفسها.

[29]- مبارك حنون، **مدخل إلى لسانيات دي سوسير**، ص: 5.

[30]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[31]- محمود فهمي حجازي، **مدخل إلى علم اللغة**، طبعة جديدة ومنقحة، ص: 6.

[32]- محمود فهمي حجازي، **مدخل إلى علم اللغة**، دار الثقافة، القاهرة، ط2، 1988، ص: 7.

[33]- محمود فهمي حجازي، **المصدر السابق**، طبعة جديدة ومنقحة، ص: 6.

[34]- جان بيرو، **اللسانيات**، تر: الحواس المسعودي ومفتاح بن عروس، دار الآفاق(د ب و ط)، 2001، ص: 4.

[35]- فردينان دي سوسير، **علم اللغة العام**، تر: يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربية، بغداد، (د ت و ط)، ص: 26.

[36]- روبير مارتان، **مدخل لفهم اللسانيات**، تر: عبد القادر المهيري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت لبنان، ط1، 2007، ص: 67.

[37]- مبارك حنون، **مدخل إلى لسانيات سوسير**، ص: 5.

[38]- المصدر نفسه، ص: 15.

[39]- محمد محمد يونس علي، **مدخل إلى اللسانيات**، ص: 9.

[40]- محمود فهمي حجازي، **مدخل إلى علم اللغة**، ص : 17.

[41]- حافظ إسماعيلي علوي، **اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته**، ص:122.